

وفاء سمير نعيم

العصبية العائلية والمشاركة السياسية: دراسة حالة في قرية مصرية

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦).

محمد عبد الهادي(*)

باحث في العلوم السياسية.

يقع الكتاب في ٢٧٠ صفحة من القطع المتوسط وينقسم إلى أربعة فصول: الفصل الأول منها يتناول البناء التصوري لدراسة العصبية العائلية والمشاركة السياسية، والفصل الثاني يتناول المحددات الإجرائية والأساليب المنهجية. أما الفصل الثالث فيعني بتحويلات بنية المجتمع المصري، وأخيراً الفصل الرابع بعنوان العصبية العائلية والمشاركة السياسية. يحتوي كل فصل على مقدمة وخاتمة تستخلص أهم النتائج، إضافة إلى مقدمة وخاتمة وملاحق الدراسة وتشتمل على دليل دراسة الحالة، وجداول الدراسة.

درست الباحثة ظاهرة العصبية العائلية في إطار فكرة التحالف والانتماء إلى جماعة معينة والتفاني فيها والدفاع عن مصالحها بهدف فهم طبيعة المجتمع في ضوء أن الدافع الأساسي للعصبية يتمثل بفكرة المصلحة المشتركة للجماعة. من هذا المنطلق تناول هذا

المشاركة السياسية في مصر هي من الموضوعات البنية التي تتدافع فيها العوامل وتتفاعل فيها المحددات وتتداخل فيها الأنماط وتثور بشأنها العديد من القضايا والإشكاليات، التي تكشف عن ديناميات معينة للمشاركة السياسية تختلف من منطقة جغرافية إلى أخرى، من الريف إلى الحضر، ما بين وجه قبلي ووجه بحري ومناطق حدودية. وفي محاولة لفهم ديناميات هذه العملية ومحدداتها في مصر أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب في ٢٠١٦ كتاباً بعنوان العصبية العائلية والمشاركة السياسية: دراسة حالة في قرية مصرية للباحثة وفاء سمير نعيم - خبيرة علم الاجتماع السياسي بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. وهي دراسة تقدمت بها الباحثة إلى قسم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة بنها للحصول على الإجازة في درجة الماجستير في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩.

المعاصر في دراسة العصبية والمشاركة السياسية. وحتى تتمكن الباحثة من وصف الصورة كاملةً بما يتلاءم مع طبيعة فترة الدراسة، حيث بينت أن ابن خلدون الذي ما زالت مفاهيمه تحتفظ بأهميتها التحليلية وكفاءتها التفسيرية عند تطبيقها على الواقع الاجتماعي والسياسي، قد استند في دراسته للعصبية إلى فكرة التحالف والانتماء إلى جماعة معينة والدافع الأساسي لتلك العصبية يتمثل بفكرة المصلحة المشتركة للجماعة. وتتمثل العوامل التي أثرت في العصبية بـ: وعوامل مادية اقتصادية، وعوامل معنوية ثقافية. تتمثل الأولى بفكرة المصلحة عند ماركس، التي عبر عنها في الصراع الطبقي وجوهره «اقتصادي، سياسي، أيديولوجي». أما الثانية (العوامل المعنوية) فتتمثل بفكرة المصلحة عند هابرماس، وتتجسد فكرة العصبية في صورتها المعاصرة.

وهكذا يتحدد الإطار التفسيري لدراسة العصبية الذي ينشأ من خلال فكرة المصلحة المشتركة، فكلما زادت الصلات الاجتماعية بين الجماعات وانتماء الفرد إلى الجماعة التي ينتمي إليها باعتبارها تحقق للفرد مصلحته التي هي مصلحة الجماعة تبلورت فكرة المشاركة السياسية.

ثانياً: المحددات الإجرائية والأساليب المنهجية

تناول الفصل الثاني «المحددات الإجرائية والأساليب المنهجية»، وبدأ بعرض للدراسات السابقة، ويليه المفاهيم الأساسية للدراسة ومفاهيمها الإجرائية التي تساعد على توضيح الإطار التصوري والمنهجي، وهي مفاهيم:

الكتاب العصبية العائلية وعلاقتها بالمشاركة السياسية في الريف المصري وكانت قرية «الحصة» نموذجاً للدراسة.

يبحث هذا الكتاب في مدى ملائمة النظرية لتفسير الواقع، ويمثل إضافة للمكتبة العربية في مثل هذه الدراسات التي تحاول أن تقترب من واقع المجتمع المصري من أجل مزيد من الفهم والتحليل والتفسير. ويستمد أهميته من أنه تناول العلاقة بين العصبية العائلية والمشاركة السياسية، إذ إن كثيراً من الدراسات تركز على العصبية القبلية وبخاصة في الوجه القبلي في حين القليل منها من يهتم بموضوع العصبية العائلية، حيث درست الباحثة العصبية العائلية كعنصر حاكم ومحدد لعملية المشاركة السياسية واختيار المرشحين ذوي العصبيات العائلية سواء في الانتخابات البرلمانية أو المحلية. وتأخذ هذه الظاهرة الطابع المؤسسي في كثير من الأحيان، في انتخابات وتشكيل الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والجمعيات الأهلية.

أولاً: فكرة العصبية عند ابن خلدون وماركس وهابرماس

في الفصل الأول وعنوانه «البناء التصوري لدراسة العصبية العائلية والمشاركة السياسية» حدّدت الباحثة الأفكار الأساسية التي تستند إليها دراسة العصبية وعلاقتها بالمشاركة السياسية عند كل من ابن خلدون وكارل ماركس ويورغن هابرماس كإطار تصوري تعتمد عليه في تفسير النتائج وفي تحديد متغيرات العصبية والاستفادة منها في تصميم دليل دراسة الحالة. وبذلك جمعت الباحثة بين الاتجاه الكلاسيكي والاتجاه

المصري، فهو محاولة من جانب الباحثة للكشف عن أثر التحولات التي أحدثتها سياسات الانفتاح الاقتصادي والإصلاح الاقتصادي والعولمة في بناء العصبية وطبيعة المشاركة السياسية.

واستخلصت الباحثة من دراستها للتحولات التي حدثت ببنية المجتمع المصري بعض النتائج الأساسية التي تتعلق بطبيعة العلاقة الجدلية بين العصبية والمشاركة السياسية على مستوى المجتمع المصري بصفة عامة والريف المصري بصفة خاصة.

فلقد أدى انتهاج الدولة سياسة الانفتاح الاقتصادي والإصلاح الاقتصادي والعولمة إلى إضعاف سلطة الدولة وتضاؤل دورها، وهو ما أدى إلى إحياء أطر كانت سابقة على الدولة، كالقبيلة والعصبية والعائلية، وأثرت تلك التحولات كذلك في بنية المجتمع المصري وأصابته بالتعدد والانقسام وعدم التجانس، وهو ما أفرز بدوره ظاهرة التشابكات والتحالفات العائلية ليس على المستوى الاقتصادي فحسب، بل على مستوى منظمات المجتمع المدني كالجمعيات الأهلية والنقابات المهنية والأحزاب السياسية، بالإضافة إلى المستوى السياسي، حيث أثرت في الحياة السياسية بصفة عامة والعملية الانتخابية بصفة خاصة.

وقد رأت الباحثة أن الديمقراطية ليس لها مستقبل مشرق في مصر؛ فالحياة السياسية وصلت إلى أكثر فتراتها فقراً واضمحلالاً، وليس أدل على ذلك من تفكيك خريطة السياسة في مصر حيث تواجه الأحزاب السياسية أزمة حادة وتتفاعل تلك الأزمة مع نتائج الانتخابات التي توجد فيها سيطرة العناصر التقليدية وظهور الاحتكار السياسي من قبل العصبيات

العصبية والمصلحة والمشاركة الاجتماعية والمشاركة السياسية. ثم عرضت الباحثة للإجراءات المنهجية التي بدأتها باختيار قرية «الحصة» التابعة لمركز طوخ بمحافظة القليوبية مجالاً لدراسة الحالة، وذلك عمداً كونها تمثل قرية شبه تقليدية تتوافر فيها الظاهرة مجال الدراسة، وقد تم اختيارها في ضوء معايير محددة تتمثل بما يلي: تتوافر فيها ظاهرة العصبية، وفيها قيادات من عائلات عريقة (ذات عصبية) ولها سلطة ونفوذ بالقرية، وأن تلك القيادات مسيطرة على مراكز القوة داخل القرية وخارجها. وعن كيفية اختيار القرية اعتمدت الباحثة على الإخباريين وبعض المسؤولين الذين استطاعت الباحثة عن طريقهم أن تحدد قرية الدراسة.

استخدمت الدراسة عدداً من الأساليب المنهجية كالمعطيات التاريخية المقارنة والأسلوب الإحصائي والإخباريين وطريقة دراسة الحالة كطريقة لجمع البيانات. كما قامت الباحثة بإعداد دليل دراسة الحالة لاستخدامه كأداة رئيسية للدراسة.

كما أن هذه الدراسة أخذت ثلاث فئات أو أجيال مختلفة تمثل العصبية، وهي: جيل كبار السن وهم من كبار العائلات وقياداتها، وجيل متوسطي السن، وجيل الشباب وراعت الباحثة تمثيل النوعين (الذكور والإناث) وذلك حتى تتمكن من وصف صور المشاركة السياسية للمرأة داخل القرية.

ثالثاً: تحولات بنية المجتمع المصري

يمثل الفصل الثالث «تحولات بنية المجتمع المصري»، دراسة حالة المجتمع

يمكن أن تكون مصدر قوة إذا استطاعت الأحزاب والقوى السياسية الأخرى الاستفادة منها، وكذلك تتفق على أن أهم الأسباب التي تدفع المرشحين للانتخابات كانت للحفاظ على أجداد العائلة في مقدمة دوافع الترشيح للانتخابات، وأنه لا توجد مشاركة من أجل المشاركة وإنما المصلحة تحكم كل شيء.

هكذا استطاعت الباحثة أن تكشف عن تأثير العصبية العائلية في كل من المشاركة الاجتماعية والمشاركة السياسية والوعي السياسي وعلاقته بالمشاركة السياسية وفي تحديد صور ودوافع ومحددات المشاركة السياسية والتوصل إلى مستقبلها وتأثيرها (العصبية العائلية) في المشاركة السياسية في ظل العولمة.

في ضوء ذلك على الأحزاب السياسية أن تستفيد من هذه الدراسة في محاولة لتطوير أعضائها، وبخاصة في المحافظات التي تغلب عليها الروابط العصبية وبناء منظومة قيم وممارسات تستند إلى أنماط تفكير منفتحة وتشكيل ثقافة الديمقراطية والمواطنة، حيث تشير أدبيات الثقافة السياسية إلى مدى تأثير المورد البشري المؤهل لتقوية الأحزاب السياسية وزيادة قدرتها على تحقيق أهدافها في المشاركة في الحكم والإدارة المحلية؛ وذلك من خلال قيام الأحزاب السياسية بتأهيل أعضائها وتمكينهم من الأدوات المعرفية والمهارية والسلوكية اللازمة للعمل السياسي والقيادة. وتعد أنشطة التربية المدنية طريقها لتحقيق ذلك الغرض التي تتميز بأنها تعتمد على العلوم السياسية، وتقديم حلول واقعية، واستنادها إلى مضمون وبرامج ذات صلة بالحياة والمجتمع □

لعائلات لها امتدادات أسرية عريقة توفر لها ضمانات النجاح والفوز بعضوية مجلس الشعب (كما كان يسمى حينها).

رابعاً: أثر تحولات المجتمع في القرية المصرية

أما في الفصل الرابع (العصبية العائلية والمشاركة السياسية دراسة حالة في قرية الحصة مركز طوخ - محافظة القليوبية) فقد أوضحت الباحثة أن ما يحدث في الريف المصري يرتبط بما يحدث في المجتمع المصري كله لما شهده المجتمع من تحولات تمثلت بتبني الدولة سياسة الانفتاح الاقتصادي والإصلاح الاقتصادي والعولمة، الأمر الذي أثر في القرية المصرية. وخلصت الباحثة إلى أن للعصبية تأثيرها الواضح في طبيعة المشاركة (الاجتماعية والسياسية) واتسامها بالطابع العائلي والشخصي داخل قرية الدراسة. وهكذا استنتجت الباحثة أنه ستظل العصبية والعلاقات القروية الداعم للسلطة السياسية الحاكمة (الدولة) والمهدد الفاعل لها وذلك في حالة إخفاق العصبية المتمثلة بعلاقات القرابة والنسب والمصاهرة وجماعات المصالح في القيام بمهامها تجاه العائلة والمجتمع.

تتفق بعض الدراسات السابقة مع هذه الدراسة في أنها اهتمت بدراسة العصبية (سواء أكانت العلاقات القروية المباشرة وغير المباشرة أم المصاهرة حيث تبدلت علاقات الدم إلى علاقات نسب) وتأثيرها في أحد أو بعض جوانب المشاركة السياسية، إذ تتفق على أن القوة تتركز في دائرة صغيرة (أي قلة فاعلة) تمتد سيطرتها إلى الإدارة المحلية والدولة، وتتفق أيضاً على أن العائلة السياسية